بسم الله الرحمن الرحيم

الأسرة الصالحة

حيث تبدأ صناعة الأمة

الحمد لله.

مكانة الأسرة في الإسلام.

ليست الأوطان العظيمة هي التي تكثر فيها المباني، ولا الأمم القوية هي التي يزداد عدد أفرادها فحسب، وإنما تقاس قوة الأمم بصلابة الأسرة التي ينشأ فيها أبناؤها. ولذلك لم يجعل الإسلام الحديث عن الأسرة حديثًا اجتماعيًا مجردًا، بل جعله حديثًا عقديًا وتربويًا وحضاريًا، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾الحجرات: ١٣.

الأسرة أصل بناء المجتمع.

فابتدأت البشرية بذكر وأنثى، ثم تفرعت منهما الأسر والقبائل والشعوب، فإذا صلح الأصل صلح ما تفرع عنه،

ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ الأعراف: ٥٨.

الأسرة تبدأ قبل الزواج

متى تبدأ الأسرة؟ يظن كثير من الناس أن الأسرة تبدأ يوم عقد النكاح أو ليلة الزفاف، وهذا غير صحيح، بل تبدأ يوم يجلس الإنسان مع نفسه ويسألها: لماذا أتزوج؟

إنه سؤال يبنى عليه مستقبل بيت كامل، بل مستقبل أجيال. فالإنسان قبل الزواج مسؤول عن نفسه، فإذا تزوج صار راعيًا ومسؤولًا عن زوجته وأولاده، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» (١).

ولذلك لا يدخل المؤمن الزواج لمجرد إشباع الغريزة أو تقليد الناس، وإنما يدخله وهو يستحضر رسالة عظيمة؛ يريد إقامة بيت يعبد الله، وتربية ذريةٍ صالحة، يخلِّف بها أثرًا يبقى بعد موته. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنَّ مما يَلحق المؤمنَ من عمله وحسناته

---

(١) متفق عليه.

بعد موته: علمًا علَّمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه..."[1].

فالولد الصالح ليس قرة عين في الدنيا فحسب، بل هو من العمل الذي يمتد أجره لصاحبه بعد وفاته، فتأمل: لو مضت مئة سنة، أو مئتان، أو ثلاثمئة سنة، وما زال في ذريتك من يصلي، ويصوم، ويقرأ القرآن، ويدعو إلى الله، ويعلم الناس الخير، فكم يتجدد لك من الحسنات بإذن الله؟ ولذلك كان السلف ينظرون إلى الزواج على أنه مشروع عبادة، لا مجرد مشروع حياة.

ومن هنا يبرز السؤال التالي:

إذا كنت أريد أسرة صالحة، فمن المرأة التي ستعينني على هذه الرسالة؟

حسن اختيار الزوجة

إن القضية ليست اختيار زوجة فحسب، وإنما اختيار أم، ومربية، وصانعة أجيال. ولهذا رسم النبي ﷺ الميزان الصحيح فقال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها،

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٤٢) وحسنه الألباني.

وحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

فلم يأمر بطلب ما يطلبه الناس عادة، وإنما وجَّه إلى المعيار الذي تبنى عليه البيوت، وهو الدين.

فالجمال يذبُل، والمال يذهب، أما الدين فهو الذي يبقى أثره في الزوج والبيت والذرية.

الحب العاطفي، والحب الناضج.

ولذلك فإن الحب نوعان: حبٌّ عاطفي، وحبٌّ ناضج. فأما الحب العاطفي، فهو الذي يشتعل في بداية التعارف أو في الأشهر الأولى من الزواج، ثم قد يضعف مع اعتياد الحياة وكثرة المسؤوليات. وأما الحب الناضج، فهو الذي تبنيه الأيام، وتصنعه المواقف، وتقويه حسن العشرة، والوفاء، والصبر، والتغاضي عن الزلات. ولهذا لم يجعل الله أساس الحياة الزوجية مجرد المحبة، بل قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾؛ فالمودة حبٌّ يظهر في التعامل، والرحمة تبقى إذا خفت حرارة العاطفة

أو نزلت بالزوجين الشدائد، ولذلك كانت البيوت التي تُبنى على الدين والمودة والرحمة أبقى من البيوت التي تُبنى على العاطفة وحدها.

بركة الزوجة الصالحة وأثرها في الأجيال.

إذا كان حسن الاختيار هو أول لبنة في بناء الأسرة، فإن ثمرته تظهر مع الأيام، حين تتكشف حقيقة الإنسان عند الشدائد. فالمرأة الصالحة تعين على طاعة الله، وتحفظ بيتها، وتغرس الإيمان في نفوس أبنائها قبل أن تغرس فيهم الكلمات.

ولهذا كان العرب يقولون في يوم الزواج: «هذا يوم له ما بعده»، لأن أثر هذا اليوم قد يمتد عشرات السنين، بل يبقى بعد وفاة الزوجين بما يورثانه لأبنائهما من صلاح أو انحراف.

ومن أبلغ الشواهد على ذلك قصة أم سليم رضي الله عنها، فقد جعلت إسلام أبي طلحة مهرها، فلما ابتليت بوفاة ولدها صبرت وأحسنت معاشرة زوجها، فدعا لهما

النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما»، حتى قال راوي الحديث: «فرأيت تسعةً من أولاده، كلهم قد قرأ القرآن» [1]، منهم: إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة: وهو عالم جليل، ومن كبار التابعين، ومن شيوخ الإمام مالك بن أنس.

حسن العشرة بين الزوجين

إذا كان حسن الاختيار هو بداية بناء الأسرة، فإن حسن العشرة هو الذي يحفظها. وقد لخَّص النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هذا المنهج بقوله: " خيرُكُم خيرُكم لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خيرُكم لِأَهْلِي " [2].

فليس حسن الخلق مع الغرباء وحدهم، بل أعظمه مع أهل البيت. وقد وصفت أم زرع زوجها وصفًا بديعًا، فقالت: «زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ، أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ، وَمَلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي.

نَفْسِي، ... فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلاَ أُقَبَّحُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ». فتأملوا هذا الوصف، فلم تبدأ بالحديث عن المال، وإنما ذكرت أثر حسن عشرته؛ «فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلاَ أُقَبَّحُ»، أي: أتكلم فلا يوبخني ولا يجرح كرامتي، ثم قالت: «وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ»، أي: أنام آمنة مطمئنة، وقالت: «وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ»، أي: أشرب حتى أرتوي، فاجتمع لها حسن المعاملة، وأمن النفس، وسعة العيش. فلما فرغت عائشة رضي الله عنها من رواية هذا الحديث، قال لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأمِّ زرع»[1].

ومن تأمل هدي الأنبياء وجد رقة الخطاب حتى في مواضع الخلاف؛ فإبراهيم عليه السلام يقول لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ﴾، وهارون عليه السلام يقول لأخيه: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ﴾، فكيف ينبغي أن يكون الخطاب بين الزوجين؟

سبب أكثر المشكلات الأسرية!

وأخطر صور التطفيف أن يطالب الإنسان بحقوقه

---

(١) رواه البخاري.

كاملة، ويقصر في أداء حقوق غيره. فإذا أخطأ غيره شدد عليه، وإذا أخطأ هو التمس لنفسه الأعذار. وهذا هو السبب الخفي في كثير من المشكلات الأسرية.

ومن أعظم أخطاء الأزواج تحويل البيت إلى ساحة محاكمة؛ تُحصى فيها الزلات، وتُستدعى فيها أخطاء الماضي مع كل خلاف جديد. أما البيت المؤمن فإنه يعمل بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾البقرة: ٢٣٧، فلا يمحو خلاف ساعة سنواتٍ من المعروف.

إن البيوت لا يحفظها الذكاء، ولا كثرة المال، وإنما يحفظها أن يؤدي كل واحد ما عليه قبل أن يطالب بما له، فإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع، ومن هنا تبدأ صناعة الأمة.

وكتب في ١١/ ١ / ١٤٤٨ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد